تحـولات أبنية الفعل المـاضـي
في القراءات القرآنية
دراسة صوت - صرفية في قواعد التحولات

د. عبد الله ناصر القرني
الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى – مكة المكرمة

تحولات أبنية الفعل الماضي في القراءات القرآنية
دراسة صوت - صرفية في قواعد التحولات

د عبد الله ناصر القرني

ملخص البحث

يتناول هذا البحث ظاهرة التحولات في أبنية الفعل الماضي، من حيث الوصف، ثم التحليل والشرح، وذلك في ضوء ورودها في المصنفات المختصة؛ للكشف – ما أمكن– عن أنواع التحولات في الأبنية الصرفية، وكيفية وقوعها، ثم عن القواعد المفسرة لها.

وخلص البحث إلى تبيين نوعين من صور التحولات، فأما أحدهما، فتحولٌ صَرْفِيٌّ، تفترق فيه الأبنية صرفيًّا، ومن ثَمَّ دلاليًّا. وأما الآخر فتحولٌ صوتيٌّ، لا تتبدل فيه الأبنية صَرْفِيًّا، وإنما يجري تَحَوُّلٌ صوتِيٌّ داخل البناء نفسه، جراء قواعد صوتيَّة صرفية معيَّنَةٍ، أهمُّها: الإبدال، والمماثلة، والحذف، والزيادة.

وانتهى البحث إلى أنَّ معظم التحوُّلات في النوعين لا تنتهي إلى فروقٍ دلالية معجمية، وإنما تدلُّ على سعة الاستعمال، لأجل التخفيف والاستحسان.

Research Abstract

This research deals with the phenomena of changes in the structure of the past tense. In this study, the phenomena is first described, analyzed and explained. This is done in the light of its occurrence in specialized references with the objective of identifying the types of these changes in the morphological structure, the manner of their occurrence in order to detect the rules that govern this phenomenon. The research reveals that there are two types of changes. The first is morphological where structures differ morphologically and then semantically. The second is phonological where morphological structures retain their forms, but the change occurs at the phonological level inside the structure itself in accordance with specific phonological and morphological rules. The most import among these rules are: replacement, analogy, deletion and addition. The research ends with conclusion that most changes of both types do not yield semantic or lexicographical differences, but they simply indicate the wide spectrum of use for the sake of simplification and perfection.

مدخل

تشترك اللغة العربية، والساميات بعامة، في وجود الكلمة المفردة لا المركبة، وفي وجود الميزان الصرفي، الذي يُغْنِي فيه حفظ الوزن عن حفظ المثال، ثم في كونها لغة تصريفية (تحليلية)، لا إلصاقية مثل: التركية أو الفارسية، ولا عازلة مثل: الصينية أو الكورية؛ فهي تصريفية تتغير فيها الأبنية بتغير المعاني، وتُفكك أجزاؤها المترابطة فيما بينها بما يُعْرَفُ بـ (مورفيمات)، تكون إمّا مقيدة أو صفرية، لا منفصلة وتامة معجميًا. ولا أن العربية لغة اشتقاقية - أيضًا - إذْ معظم تصريفات الأبنية فيها من (جذر) غير تام الدلالة.

وتُشَكَّلُ البنيةُ في الكلمة العربية، من الترابط بين صَرْفيَّتين، إحداهما ثابتة لتحقيق (الماهية)، والأخرى مُتَنَقِّلة لتحقيق (النسبة). والثابتة هي صرفية (الجذر). وتتكون من صوامت محددة في العدد، ثابتة في الرتبة. وتَحْمِلُ بالقوة لا باللفظ، معنى معجميًا غير تام الدلالة، يظل ساريًا في كل تحولاتها. وأما المتنقلة فهي صرفية (اللواصق)، وتشمل في العادة، صوائت وصوامت، يتوارد على الجذر أحدهما أو كلاهما، بصدره، أو وسطه، أو ذيله. وهذه اللواصق الصرفية هي حقًا، التي تُحقق للبنية منطوقها الصوتي المناسب، وتُقرر فيها مقولتها الصرفية الخاصة.

على أن الصرفيين القدماء لم يعتدوا بالصوائت القصيرة كوحدة تحليل صرفية خاصة بنفسها، ورأوها جزءًا من وحدة الجذر، وغير مفصولة عنه[1]. وبات مسلمًا به اليوم أنها وحدة تحليل أساسية، وفي حركتها وحدها بين صوامت الجذر؛ فائه وعينه، يمكن، مثلًا للفعل الثلاثي المجرد أن يتحول إلى أربع وثلاثين بنية، من الماضي والمضارع والأمر. ما بين مستعمل ومهمل، وهذا باستثناء التحولات الممكنة في الرباعي المجرد فالخماسي[2].

وتبعاً لعمل (الجذر واللواصق) تنقسم الأبنية إلى المجرد والمزيد، فأما المجرد فثنائي التَّشَكُّل من (جذر + صوائت) فقط، وعلى هذا الجذر تتوزّعُ أبنية العربية الأساسية البسيطة، والتي يُنظر إليها على أنها ركاز العربية الأقدم، ومرحلة أولى في تطورها اللغوي، وهي مبتدأ أمر العرب الافتراضي في التعبير عن عالم الأشياء والأحداث من حولهم. وأما المزيد فثلاثي التَّشَكُّل من (جذر + صوائت + لواصق زيادة)، وعليه تتوزّعُ أبنية العربية الموسعة، جامدة أو مشتقة، والتي استجدت تاليًا في أمر الناس، كي تسدّ أغراضهم بما يساير مقاصدهم المتجددة، والمتغيرة بتغير الظروف الزمانية، والمكانية، والبيئية.

وهكذا تكون القاعدة الكلية، التي تفسر سعة العربية في أبنية المزيد أكثر من المجرد، من تفعيل الجذر بآليتي عمل معًا (صوائت ولواصق). وتفسر كذلك سعة العربية في تجدد صور التحولات في الكلمة المعجمية المفردة لتصل في بعضها قرابة إلى عشر لغاتٍ، دون تَغَيّرٍ في المعنى، مثلما هو في كلمة (إصْبَع) . ومنها في القراءات (خُطُوات)، التي قرأ بها الجمهور، وقرأ نافعٌ: خُطْوات، وأبو السمال: خُطَوات، وعبيد: خَطَوات، وأبو حرام: خَطْوات، والأعرابي: خِطَوات .

وقد أحدثت هذه التحولات المتعددة في الكلمة المعجمية الواحدة جدلًا بين من يرى المسألة ميزة (تَفَوُّق) في العربية على سواها، وناظرٍ إليها عقبةً كؤودًا في تمييز المعاني، وفي تضخيم المعجم العربي، ثم ما حاجة ابن اللغة في البيئة الواحدة، أن يعبر بأكثر من صورة صوتية للكلمة نفسها، والمعنى نفسه؟

ومن هذه المشكلة وما يقاربها، تَحَوُّلات البنية الصرفية يأتي هذا البحث ليتناول مفرداته، باحثًا عن مبررات وجودها.

البحث؛ الهدف والمنهج والحدود:

ليس من هدف هذا البحث أن يتكلم عن التحولات في أبنية العربية، لا من حيث القلة أو الكثرة، ولا من حيث كونها ميزة أو عقبة. فواقع الحال يثبت وجود تحولات في نصوصها المتنوعة، قديمة وحديثة، وفصيحة ولهجية، سواء بسواء. وإنما يتجه البحث إلى تَعْرُّفها مستعملة حقيقة لا مصطنعة صورية، وذلك في قراءات القرآن الكريم؛ من حيث صورها، ورواتها، ومن ثم قواعد التحولات فيها؛ فيما هو قسيم (تحول دلالي)، أو قسيم (تحولٌ صوتي). وذلك في ضوء المنهج الوصفي التحليلي، وباهتداء من الدراسات اللغوية المختصة في هذا الشأن. وأما حدود البحث فمحصورة في (تحولات أبنية الفعل الماضي في القراءات القرآنية)، والماضي المبني للمعلوم قصرًا، دون المجهول، والمضارع والأمر؛ لوجود قدْرٍ كافٍ من الأمثلة، التي يمكن تناولها بالدراسة، ومن ثم يمكن البناء عليها، واستكمالها لاحقًا، بما يغطي سائر الأبنية الصرفية في القرآن الكريم وقراءاته.

ويطَّرِدُ في العربية الفصحى مجيء "الفعل" ماضيًا ومضارعًا وأمرًا، على هيئة مخصوصة، لا تعقيد فيها، فهو ينصَبُّ في أبنية مفردة بنفسها، غير متداخلة ولا متقاطعة ببعضها بعضًا. فلكل نوع أبنيته (أوزانه الصرفية) الراسخة في المنظومة اللغوية، بالعقل العربي الفصيح. وهذه الدراسة تتوقف على أنواع الفعل الماضي المبني للمعلوم، في حالة (الفعل المفرد)، الدال على حدوث فعل قبل زمن التَّكَلُّم، الموسوم عادة بالفعل "التام المطلق"، دون اعتناء بـ(الفعل المركب) المخصوص ببيان جهة الزمن في الحدث، للماضي القريب (قد فعل)، والماضي البعيد (كان قد فعل)، والماضي الاستمراري (كان يفعل)، والماضي الاستقبالي (كان سيفعل) [٣]...

وتبعًا لدراسة الشيخ عضيمة فثمة (٧٥٤) فعلًا ماضيًا مستعملًا في لغة القرآن الكريم، توزعت على أبنية الثلاثي المجرد (٢٩٣) فعلًا، والثلاثي المزيد (٢٥٦) فعلًا. وكانت الأبنية الذهبية منها، في المجرد "فَعَل" (٢٢٥) فعلًا، وفي المزيد "أَفْعَلَ" (١٤٧)، و"فَعّلَ" (١٠٦) و"افْتَعَل" (٦١). وأما المهملة فشملت كل أبنية الإلحاق من المجرد والمزيد، وغرائب الأبنية مثل: افْعَوْعَل، وافْعَوَّل، وافْعَنْلَل، وافْعَنْلى، وافْعَلَلّ...، وحُق ذلك في لغة القرآن، أن تُهْجَرَ منه أبنية الصنعة العسرة التكوين والتصريف.

وقد كان الشأن في تلاوة صيغ هذه الأفعال الماضية، أن بعضًا منها، قد تعددت فيها أوجه القراءات، مع وجود سند وأصل يرتفع بها إلى قُراء، أو رواة موثوقين، بما يمنع نُكرانها استعمالًا، وإن شُذِّذت في بنائها لغويًا، وثمة مصطلحات، أو مداخل يجري تداولها في دراسة أو تبيين هذه المسألة مثل: التفريع، والتنوع، والتحول...، وفي كُلٍّ يُقْصَد به، أن يكون للبنية (الفعلية) ضبطٌ مُعَيَّن، أو صورةٌ في اللفظ مُشْتهرة على أنها القاعدة، ثم يَظْهَرُ خروجٌ عنها. والتحول هو الأنسب للموضوع هنا.

عدد الأفعال الماضية التي جرت فيها التَّحَوُّلات (٢٩٣) فعلًا ماضيًا، تمَّ جمعُها من كتب القراءات الأساسية؛ لابن مجاهد، وابن خالويه، وأبي علي الفارسي، وابن جني وأبي زرعة، ومكي القيسي، فضلًا عن كتابي: البحر المحيط لأبي حيان، والقرآن الكريم في جميع قراءاته لـ: عبد الحميد طلب السيد. وفي هذا القدر ما يكفي (كمًا وكيفًا) من التحولات، بما يسمح بإقامة دراسة عن صور التحولات. وعن القواعد المفسرة لوجودها.

وطريفٌ أن يشار إلى أن أبنية التحولات في عيِّنَةِ الدراسة، قد تركزت في الأبنية الذهبية عينها عند عضيمة، ولا نكران في وقوع التحول بتلك الأبنية الأوسع

استعمالًا، وتاريخ اللغات الحيّة يشهد بإمكان وقوع ذلك، وكذلك يُسَلِّم اللغويون اليوم، بأن النظام الصوت - صرفي بعيد كل البعد عن الثبات المطلق، طوال حياة لغة من اللغات، لكنه يكون نسبيًا بين لغة وسواها، ويكون متنوعًا ما بين الجمعي والفردي، والوقتي المرحلي، ويؤثر فيه، وتتضاعف أسبابه باللهجات، وتعاقب الأجيال، واختلاف الألسنة، بل بكل تغير في البيئات والعلاقات الاجتماعية خاصة(٤).

وتَنَوُّع الأداء في هذا الكلام الإلهي الكريم؛ لأجل التيسير على الناس في تلاوته، والتعبُّد به من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فالقارئ يختار من أوجه العربية ما يراه أقوى للمعنى، وأنسب للفهم منه في غيره من صور القراءة. والقاعدة المعتبرة في فقه العربية منذ ابن جني تَنُصُّ على أن الناطق بلغة من لغات العرب مصيبٌ غيرُ مخطئ؛ وإنْ كان غيرُ ما جاء به خيرًا منه(٥).

*** القراءات والقراء:**

ليس نفلًا في الكلام أن يُشار إلى أن تعدد القُرَّاء لا يعني تعددًا مساويًا في القراءات، وإلّا تحصل، في مقام هذه الدراسة، أربعون قراءة ونيِّف، بعدد من ورد لهم إسنادات في القراءة، وإنما هي قراءات، على ما سيتضح لاحقًا، محصورة معدودة، قد ثبت سماعها، وامتد سندها في طبقات من القراء جيلًا فما بعده، منذ طبقة ابن الخطاب (٢٣هـ)، وابن مسعود (٣٢هـ)، وابن عباس (٦٨هـ). ومعظمها غدا اليوم حلقة في تاريخ العلم بالقراءات. ولا يجري تَعَبُّدٌ بها في المسجد الجامع، بأي مصر إسلامي، اللهم إلّا برواية حفص في المشرق، وورش في المغرب.

وبالتَّتَبُّع فإن أنساب القراء وإسناداتهم تتوقف بهم، مع نهاية القرن الخامس الهجري عند طبقة ابن مقسم البغدادي (٣٥٤هـ) والمهدوي المكي (٤٤٠هـ) وأبي الخطاب الجراح البغدادي (٤٩٣هـ)، ثم لا نكاد نَجِدُ أسماءً جديدة، حتى في كتب القراءات اللاحقة لهذا القرن مثل: "النشر"، و"البحر المحيط"، و"الإتحاف"؛ وكأن الأمر انتهى إلى خيار من خيارين: إما قراءة حفص وإما قراءة ورش، على حين أصبحت القراءات الأخرى محصورة في أفراد المسلمين لا جماعتهم.

ومهم أنْ يُلاحَظَ أن جُلّ القراء، ينتمون إلى جيل القرن الثاني الهجري، عصر التدوين، وعصر انتقال علوم العربية، من مرحلة المشافهة، إلى مرحلة الكتابة والتدوين لمختلف المعارف، كليات وجزئيات على سواء، وبفضل ذلك اكْتُسِبَتْ المعرفة المؤكدة بشواذ القراءات الخارجة عن قراءة السبعة القراء الكبار، ابن كثير المكي (١٢٠هـ)، ونافع المدني (١٦٩هـ)، وابن عامر الدمشقي (١١٨هـ)، وحمزة (١٥٦هـ)، والكسائي (١٨٩هـ)، وعاصم (١٢٧هـ) الكوفيون، وأبو عمرو البصري (١٥٦هـ).

صور التحول في أبنية الفعل الماضي:

يعتني هذا المبحث بتوضيح صور التحول لا إجراءاته، وينطلق في ذلك من اعتماد قراءة حفص، بمثابة المدخل، والبنية غير المحولة، والقراءات الأخرى استبدالات، ولا يعني ذلك أن قراءة حفص هي الأساس وغيرها تفريع عنها، وإنما جميع القراءات نظائر متكافئة. والأثر الناجم عن التحولات ههنا، سواء كان ظاهرًا جليًا أم خفيًا، فإنما هو من إعادة تشكيل موقع البنية الفعلية بسواها، وليس من استدعاء واحدة في أخرى. والإجماع قائم على أن كل قراءة هي سنة بنفسها، طالما ثبت سندها، واحتملتها العربية رسمًا ولغة.

وتدُلُّ القراءات القرآنية، في مستوى أبنية الفعل الماضي، على وجود تباين ذي دلالة، في مرونة الأبنية على التحول. فثمة أبنية قوية، وأخرى متوسطة، وثالثة محايدة لم يتغير فيها الاستعمال، وتبينُ القوة في الأبنية من وزن: فَعَل، فَعَّل فاعل أفْعَل، والتوسط في: تَفَعل وافْتَعل، والمحايدة: في انْفَعَل. وتدل القراءات كذلك على أن تحولات الأبنية تسير في نمطين: صرفي، وصوتي.

* تحول صرفي استبدالي؛ تفترق فيه الأبنية بعضها عن بعض صرفيًا، ومن ثم دلاليًا أو جماليًا. والذي يهم مقام الدراسة هي الصورة الصرفية فقط.

* تحول صوتي:لا تتبدل فيه الأبنية صرفيًا. وإنما يجري تَحَوُّلٌ صوتي داخل البناء نفسه، جراء تلاوين نطقية، بلا صفة مقطعية لها، مثل ما هي في الأصوات الصحاح، وسيجري تفصيل القول فيها، في القابل من صفحات الدراسة، وأما المبحث هنا فالحديث عن:

١- التحوُّلِ الصرفي الاستبدالي.

الأبنية الأساسية في الاستبدال: ويندرج ضمن هذه المجموعة،الأبنية الآتية:

أ - بناء (فَعَل): هذا البناء له قيمة الدلالة على الحدث المجرد. وفيه يقع الحدث من الفاعل، ولا يرتد أثره عليه، بل على مفعول به خارجي عن الفاعل، وعليه يُعرف بالفعل (المتعدي). وهو أكثر الأبنية استعمالًا، وأسهلها تركيبًا من تمازج (جذر + فتحة)، وعليه لم يختص بمعنى دلالي أساسي، وظل ولا يزال يستعمل في تحولات ارتدادية منه وإليه، فأما منه فتلاحظ في الأوجه الآتية:

١ - فَعَل ـــــ فَعِل: قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ آل عمران: ١٤٦. قرأ

بكسر العين (وَهِنُوا) عكرمة والأعمش والحسن وأبو السمال[٦]. ومنه: أَلَتَ وأَلِتَ (الطور:٢١)، وأَمَرَ وأَمِرَ (الإسراء:١٦)، وحَرَصَ وحَرِصَ (النساء:١٢٩)، وحَضَرَ وحَضِرَ (البقرة:١٣٣)، وزَلَّ وزَلِلَ (البقرة: ٢٠٩)، وشَغَفَ وشَغِفَ (يوسف:٣٠)، وضَلَّ وضَلِلَ (الأنعام: ٥٦، والسجدة:١٠)، وعَجَزَ وعَجِزَ (المائدة:٣١)، وغَوَى وَغَوِيَ (القصص:٦٣)، وفَرَغَ وَفَرِغَ (الشرح:٧)، وَقَنَطَ وَقَنِطَ (الشورى:٢٨)، وَنَقَمَ ونقِمَ (التوبة: ٧٤، والبروج:٨) .

٢ - فَعَل ـــــ فَعُل: قوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ الرعد: ٢٣ قرأ بضم العين (صَلُحَ) ابن مسعود، وابن أبي عبلة[٧].

ومنه: مَكَثَ ومَكُثَ (النمل:٢٢)، وعَبَدَ وعَبُدَ (المائدة:٦٠)، وَوَهَنَ ووَهُنَ (آل عمران: ١٤٦).

٣ - فَعَل ـــــ فَعَّل: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ الهمزة: ٢ قرأ بالتشديد (جَمَّعَ) ابن عامر وحمزة والكسائي[٨].

ومنه: أَثَرَ وأَثَّرَ (العاديات:٤)، وأَمَرَ وَأَمَّرَ (الإسراء:١٧) وبَرَزَ وبَرَّزَ (آل عمران: ١٥٤)، وخَرَقَ وخَرَّقَ (الأنعام:١٠٠) وَدَرَسَ ودَرَّسَ (الأنعام:١٠٥)، وزَكَى وزَكَّى (النور:٢١). وشَدّ وشَدَّدَ (ص:٢٠)، وشَغَلَ وشَغَّلَ (الفتح:١١)، وصَرَفَ وصَرَّفَ (الأحقاف:٢٩)، وطَمَسَ وطَمَّسَ (القمر:٣٧)، وعَبَسَ وعَبَّسَ (عبس:١) وعَدَلَ وعَدَّلَ (الانفطار:٧) وعَقَدَ وعَقَّدَ (النساء:٣٣)، وغَرَّ وغَرَّر(الانفطار:٦)، وفَتَحَ وفَتَّحَ (القمر١١)، وفَتَنَ وفَتَّنَ (ص:٢٤)، وفَرَضَ وفَرَّضَ(النور:١)، وفَرَقَ وفَرّقَ (البقرة:٥٠) وفَعَلَ وفَعَّلَ (الأنبياء:٦٣)، وقَتَلَ وقَتَّلَ (الأنعام:١٤٠)، وقَدَرَ وقَدَّرَ (المرسلات:٢٣، والأنعام٩١، والفجر ١٦)، وكَذَبَ وكَذَّبَ (النجم١١)، ولَبَسَ

ولَبَّسَ (الأنعام٩)، ومَلَكَ ومَلَّكَ (النور٦١)، ونَـزَلَ ونَـزَّلَ (الشـعراء١٩٣)، ووَسَـطَ ووَسَّطَ (العاديات٤)، ووَقَى ووَقَّى (الدخان٥٦).

٤ - فَعَل ـــــ فاعَل: قوله تعالى: ﴿إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ النحل: ٥٤ قرأ قتادة: كَاشَفَ[٩].

ومنه: أَتَى وآتَى (الأنعام ٣٤، والأحزاب١٤) وأَلَتَ وآلَـت (الطـور٢١)، وأَمَـرَ وآمَرَ (الإسراء١٦)، وجَزَى وجَازَى (الإنسـان١٢)، ودَرَسَ ودَارَسَ (الأنعـام١٠٥)، وعَزَّ وعَازَّ (ص٢٣).

٥ - فَعَل ـــــ أَفْعَل: قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ الانفطار: ٦ قرأ الأعمش وابن جبير بهمزة على أغرك[١٠]. ومنه: بَعَثَ وأَبْعَثَ (يس٥٢)، وحَلَّ وأَحْلَـل (المائدة٢)، وجَنَّ وأَجَنَّ (الأنعام٧٦)، ودَهَبَ وأَدْهَبَ (البقرة ١٧) وفَتَنَ وأَفْتَنَ (ص٢٤).

٦ - فَعَل ـــــ انْفَعَل: قولـه تعـالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ يوسـف: ٩٤ قـرأ ابـن عباس على انْفَصَلَ[١١].

٧ - فَعَل ـــــ تَفَعَّل: قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ النمـل: ٢٢ قـرأ عبـد الله فَتَمَكّث، بناء تَفَعَّل[١٢].

٨ - فَعَل ـــــ افْتَعَل: قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ المسد: ٢ قرأ عبد الله اكْتَسَبَ بناء افتعل[١٣].

٩ - فَعَل ـــــ اسْـتَفْعل: قولـه تعـالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾الأعـراف: ١٨٩ قرأ ابن عباس، وابن عمار (اسْتَمَرَّتْ)[١٤].

ب – بناء فَعّل: هذا البناء هو رأس الأفعال المزيدة، وهو بناء ملازم للتعدية نحويًّا، والأساس فيه أن يرد في معنى الشدّة والتكثير، وفي معان أخرى على قلّةٍ، وقد غدا في العاميات يَسُدّ مسد بناء أفْعل باطراد، نحوًا ودلالة، والتحولات فيه كمثلها في بناء فَعَل ارتدادية منه وإليه:

١ – فَعَّل ـــــ فَعَل: قوله تعالى: ﴿ مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ الضحى: ٣ قرأ السبعة مشددة، وقرأ أبو حيوة، وعروة، وابن أبي عبلة مخففة من المجرد (وَدَعَ) بناء فَعَل. ونسبت للنبي[١٥]. ومنه: صَدَّقَ وصَدَقَ (سبأ ٢٠، والصافات١٠٥)، وصَرَّفَ وصَرَفَ (الفرقان ٥٠) وعَدَّد وعَدَدَ (الهمزة٢)، وعَرَّفَ وعَرَفَ (التحريم٣)، وعَزَّرَ وعَزَرَ (المائدة١٢)، وعَقَّدَ وعَقَدَ (المائدة٨٩)، وفَجَّرَ وفَجَرَ (الكهف٣٣)، وفَرَّطَ وفَرَطَ (الأنعام٣٨)، وفَرَّقَ وفَرَقَ (الأنعام ١٥٩، والإسراء١٠٦، والروم ٣٢)، وفَصَّلَ وفَصَلَ (الأنعام١١٩)، وقَطَّعَ وقَطَعَ (الأعراف١٦٠)، وقَلَّبَ وقَلَبَ (التوبة٤٨)، وكَذَّبَ وكَذَبَ (الأنعام١٥٧) وكَفَّلَ وكَفَلَ (آل عمران ٣٧)، ولَوَّى ولَوَى (المنافقون ٥)، ونَزَّلَ ونَزَلَ (النساء١٤٠)، ونَقَّبَ ونَقَبَ (ق٣٦)، ووَصَّلَ ووَصَلَ (القصص٥١) ووَفَّى ووَفَى (النجم ٣٧).

٢ – فَعّل ـــــ فَعِل: قوله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ آل عمران: ٣٧ قرأ عبد الله المزني كَفِلها مخففة على بناء فَعِل، والسبعة عدا عاصم كَفَلها على بناء فَعَل[١٦].

٣ – فَعّل ـــــ فاعل: قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾الروم: ٣٢ قرأ حمزة والكسائي وعلي ونسبت للنبي □ فَارَقُوا، على بناء فَاعَل[١٧].

ومنه: زَيَّلَ وزَايَلَ (يونس٢٨)، وطَوَّعَ وطَاوَعَ (المائدة٣٠)، وفَرَّقَ وفَارَقَ (الأنعام ١٥٩)، وكَلَّمَ وكَالَمَ (البقرة٢٥٣) ووَلَّى ووَالَى (التوبة٥٧).

٤ - فَعّل ـــــ أَفْعَل: قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾ البقرة: ١٣٢ قرأ نافع وابن عامر أوصى على بناء أفعل[١٨]. ومنه: أَيَّدَ وآيد (البقرة٢٥٣، والمائدة١١٠)، وفَهَّمَ وأَفْهَمَ (الأنبياء٧٩)، وكَفَّلَ وأَكْفَلَ (آل عمران٣٧)، ونَبَّأَ وأَنْبَأَ (التحريم٣)، ونَزَّلَ وأَنْزَلَ (البقرة٢٣، والنساء١٤٠).

جـ - بناء فاعَل: بناء سهل التكوين، فالعمل فيه مجرد مدّ حركة فاء الفعل. وقياسه أن يرد في معنى المفاعلة؛ أي المشاركة بين طرفين، يكون كل منهما فاعلًا من وجه، ومفعولًا من وجه آخر. والتحول فيه ارتدادي منه وإليه:

١ - فاعَل ـــــ فَعَل: قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ النساء: ٤٣ قرأ الكوفيان بالمجرد لَمَسَ على فَعَل[١٩]. ومنه: آوَى وأَوَى (الضحى٦)، وعَاقَبَ وعَقَبَ (الممتحنة١١)، وعَاهَدَ وعَهَدَ (البقرة١٠٠)، قَاتَلَ وقَتَلَ (النساء٩٠)، ووَاعَدَ ووَعَدَ (الأعراف١٤٢).

٢ - فاعَل ـــــ فَعّل: قوله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ الأعراف: ١٣٨ قرأ الحسن وإبراهيم ويعقوب النخعي وابن حيوة بالتضعيف جَوَّزنا على بناء فَعَّلَ[٢٠]. ومنه: سَاوَى وسَوَّى (الكهف٩٦)، وعَاقَبَ وعَقَّبَ (الممتحنة١١).

٣ - فاعل ـــــ فَعِل: قوله تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا ﴾ البقرة: ١٠٠ قرأ أبو السمال بالمجرد عَهِدوا بناء فَعِل[٢١].

٤ - فاعَل ـــــ أَفْعَل: قوله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ الممتحنة: ١١ قرأ مجاهد والحسن على أعقبتم بناء أَفْعَلَ[٢٢].

د – بناء أَفْعَل: بناء أَفْعَلَ بناءٌ يتكون بزيادة المقطع (أَ) بأوله مع حركة فاء الفعل. وهو مثل بناء فَعّل مختص نحويًا بالتعدية، فأما دلاليًّا فهو قياس في معنى السببية والعِلّة. وقد هَجَرَتْهُ العاميات إلى فَعّل، وبذلك يُعَدّ أمارة واضحة على مستوى الكلام الفصيح. والتحول فيه كذلك ارتدادي منه وإليه.

١ – أفْعَل ـــــ فَعَل: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴾ المدثر: ٣٣ قرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد والحسن وطلحة بالمجرد دَبَر بناء فَعَل وكذا قرئ في السبع[٢٣].

ومنه: آتى وأَتى (المؤمنون٦٠، والروم٣٩) وآثَرَ وأَثَرَ (الروم٩)، وآزَرَ وأَزَرَ (الفتح٢٩) وأَرْكَسَ ورَكَسَ (النساء٨٨)، وأَزْلَفَ وزَلَفَ (الشعراء٦٤)، وأَسْفَرَ وسَفَرَ (المدثر٣٤)، وأَضَاءَ وضَاءَ (البقرة٢٠)، وأَعْنَتَ وعَنَتَ (البقرة٢٢٠)، وأَنْذَرَ ونَذَرَ (البقرة٦)، وأَنْشَرَ ونَشَرَ (عبس٢٢).

٢ – أفْعَل ـــــ فَعّل: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ الصافات: ١٠٣ قرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش بالتشديد سَلّما بناء فَعّل[٢٤]. ومنه: آزَرَ وأَزَّرَ (الفتح ٢٩)، وأَرْكَسَ ورَكَّسَ (النساء٨٨) وأَنْجَى ونَجَّى (الأعراف١٤١).

٣ – أفعل ـــــ فاعل: قوله تعالى: ﴿ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ ﴾ الروم: ٩ قرأ أبو جعفر بمدة بعد الهمزة آثروا، بناء فَاعَلَ[٢٥].

٤ – أفعل ـــــ افتعل: قوله تعالى: ﴿ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾ الكهف: ٨٥ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو على اتّبع بناء افتعل[٢٦].

* أبنية المطاوعة: في العربية ثلاثة أبنية تشتمل على مقطع التاء (ت) في تكوينها الصرفي، وهي تَفَعّل وتَفاعَل وافْتَعَل. وهذه تُعد من الأبنية المخصبة في الاستعمال

القرآني، وذات معان أساسية هي الواردة في فَعّل وفاعَل وفَعَل في الدلالة على التكثير، فالمشاركة، فالحدث المطلق، وبزيادة مقطع التاء أخذت مفهومًا إضافيًا في الدلالة على المطاوعة، وتعرضت وهو المهم هنا، إلى تغيرات بنيوية تاريخية، أي قديمة، نتج عنها أبنية فرعية أو اشتقاقات جديدة. تتفق وإياها دلالة، وتختلف عنها تشكيلًا ووزنًا، وهي الأبنية: اتْفَعّل، واتْفاعَل، واتْفَعَل، واتسعت الفصحى، وحتى لغة القرآن الكريم لبعض من هذه الصيغ الفرعية. وكثيرًا ما انشغل الفكر الصرفي بالبحث في أصلها، وكيفية وزنها صرفيًا، باعتبار الأصل المتحولة عنه، أم باعتبار الاستعمال القائم فيها، وفيما يراه علماء فقه المقارنات السامية، فالمسألة مشتركة في الساميات، ولا تخص العربية وحدها.

والتصورات في هذا المقام تُسَلِّم بأن بناء تَفَعّل هو الأساس في اتْفَعَّل، وتَفاعَل هو الأساس في اتْفاعَل، وأما افْتَعل فهي بنية غير أساسية، والأساس فيها هو اتْفَعَل، وذلك من منظور أن بناء المطاوعة يجري بزيادة مقطع التاء بصدر البنية قبل فائها. ثم تُزاد ألف الوصل ضرورة، في العربية، لأن نظامها المقطعي يبدأ بصوت صامت فصائت (حركة)، ولا يسمح بالعكس (صائت ـــــ صامت)، ولذا تُجتلب ألف الوصل كعنصر اتكاء له قيمة صوتية محضة، تسهيلًا للنطق بالصامت الساكن بعدها، وهو ما يظهر في صورتي اتْفَعّل واتْفاعَلَ، وانفرد التحول في تكون بناء للمطاوعة من المجرد (فَعَل)، فجاءت التاء بعد فاء الفعل على (افْتَعَل). وحقها قبلها، على بناء (اتْفَعَل). ويرجح علماء المقارنات السامية أن السبب في هذا القلب المكاني، هو القياس على الأفعال الكثيرة، التي تبدأ بصوت من أصوات الصفير، كالسين والشين (اشتمل، استلم، استعر) بتجاور صفة صفير مع صفة أقل وضوحًا سمعيًا (شين وتاء) فغلبت صفة الصفير، وجرى قلب مكاني تبعًا لقانون السهولة في الجهد

العضوي، ثم اطَّرَد الباب،وغدت هذه الصورة المتحولة أي بناء (افْتَعَلَ)، هي القياسية في نظام الفصحى، ويعرف التحول فيها بالإبدال التاريخي[٢٧]. ولا تزال بنية (اتْفَعَل) حية في لهجات عربية حديثة كثيرة (اتْمَطر، اتْكَتب، اتْرَمى، اتْعَمل). وكذلك هُجر في اللهجات الحديثة الاستعمال على (تَفَعَّل وتَفاعَل) وغاب كلية من التداول اليومي ليَحُلَّ محلَّه (اتْفَعّل واتْفاعَل)، وهما غير قياسيين، ولا يردان إلّا نادرًا في المستوى الفصيح، أما في اللهجات فيقال (اتْنَدَّم، اتْنَفَّس، اتْقاتل اتْشارط وليس تَنَدَّم وتَنَفَّس.

وعند الصرفيين القدامى: تُوَجَّه التحولات الداخلية في أبنية المطاوعة ههنا، بمفهوم الإدغام الخطي لا الصوتي ومنه أن الأصل في صيغ مثل (ازَّيَّن) [يونس: ٢٤]، و(ادَّارك) [الأعراف: ٣٨]، تَزَيّن، وتَدارك، قد أُدغمت التاء في فاء البنية، مع اجتلاب ألف الوصل في الابتداء، منعًا من التقاء الساكنين، وهذا مجرد شرح للصور الخطية بين الصيغتين؛ وإلّا فليس يمكن أبدًا إجراء عملية إدغام بين المتحركين، التاء المفتوحة وفاء البنية المفتوحة[٢٨]. وجَرْيُ التحَوُّلِ في هذا المقام عرفته العربية والساميات أيضًا. في أن المقطع القصير المفتوح، وهو التاء (تـ)، قبل مقطع منبور، وهو الثاني (زَيّ) يكون ضعيفًا، لانتقال النبر عنه إلى ما بعده، فيجري حذفه أو تطويله، وعليه حذفت الفتحة من مقطع التاء، فتجاور ساكن ثم متحرك، فجاز الإدغام أو المماثلة بينهما، ثم اجتلبت همزة الوصل[٢٩]، وسبقت الإشارة إلى أن الفصحى لم تتسع لهذه التحولات إلّا نادرًا. واطَّردت في لغة الحياة اليومية حيث قاعدة النبر أنشط فاعلية منها في اللغة الفصحى، وهنا الكلام عن التحولات الصرفية في أبنية المطاوعة.

أ – بناء تفَعَّل: بناء كثير الاستعمال في القرآن الكريم على صورته القياسية، ويطرد بمعنى المجرد والتكلف والتكثير. ولكن المقام هنا عن تحولات البنية صرفيًا، وقد

كانت محدودة في الفعل الماضي وظهرت في الآتي:

١ - تَفَعَّل ـــــ اتْفَعَّل: قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ فاطر: ١٨، قرأ ابن مسعود وطلحة (ازّكّى) بناء اتْفَعَل، وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ البقرة: ١٥٨، قرأ ابن مسعود (اطَّوّع) (٣٠).

٢ - تَفَعَّل ـــــ تفاعل: قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الفتح: ٢٥، قرأ أبو حيوة وابن عبلة وابن مقسم (تزايلوا) بناء تَفاعَل[٣١].

٣- اتْفَعَّل ـــــ تَفَعَّل . وهو تحول ارتدادي من الفرع إلى الأصل، ومنه جاءت قراءة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ يونس: ٢٤، قرأ الأعمش وعبد الله بن مسعود (تَزَيَّنت) بناء تَفَعَّل، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ النمل: ٤٧، قرأ أبو عمرو (تَطَيّر) بناء تفعل، وقرأ الحسن ومالك بن دينار في الموضعين على أفعل (أَزْين وأطْير)[٣٢].

ب – بناء تَفاعَلَ: بناء للمطاوعة مع إرادة المشاركة ولمعنى التكلف وبمعنى المجرد، وصوره القياسية كثيرة في القرآن الكريم، فأما التحولات الصرفية فهي:

١- تَفاعل ـــــ تَفَعّل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ البقرة: ٧٠، قرأ مجاهد تَشَبّه، بناء تَفَعّل[٣٣].

٢- تَفاعَل ـــــ اتْفاعَل: قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ القصص: ٤٨، قرأ الأعمش وطلحة (اظَّاهرا) بناء اتْفاعَل، وكذلك: القراءة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ التحريم: ٤، وقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾البقرة: ١١٨،

قرئت اشَّابهت عندهما وعند يعقوب، والتحول إلى وزن اتفاعَل يُعد تحولاً إلى البنية الفرعية، الناجمة عن حذف حركة تاء المطاوعة بسبب انتقال النبر عنها إلى المقطع الذي يليها فيقع إدغام للساكن في المتحرك ثم تجتلب همزة الوصل بأول الصيغة[٣٤].

٣- اتْفاعل ـــــ تَفاعَل: ارتداد عن الفرع إلى الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ ﴾ النمل: ٦٦، وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا ﴾ الأعراف: ٣٨، قرأ أُبيٌّ وأبو عمرو وابن مسعود (تدارك) على تفاعل، ومثله في قوله ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾التوبة: ٣٨، قرأ الأعمش تثاقلتم، وقوله: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ﴾ البقرة: ٧٢، قرأ أبو حيوة تدارأتم[٣٥].

جـ- بناء افْتَعَل: بناء للمطاوعة، كثير الورود في القرآن الكريم، وأكثره في معنى المجرد منه، والتحولات فيه ضعيفة، كغيره من أبنية المطاوعة السابقة، ومنها:

١- افْتعل ـــــ فَعَل: قوله تعالى: ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ الكهف: ٧٧، قرأ البصريان وابن كثير مخففة من المجرد أخَذ (لَتَخِذْتَ) وقيل من المجرد (تَخِذ) بناء فَعِل[٣٦]، وليس بشيء فلا تكون التاء أصلاً، وإنما أُبدلت التاء بالهمزة، تبعاً لقاعدة تفاعل الأصوات المتجاورة مع تاء الافتعال، والتي تتَّضِحُ في فقرة تحولات الصيغ المعجمية، من بناء افتعل.

٢- افْتعل ـــــ أَفْعَل: بالتحول من بناء المطاوعة إلى بناء العِلَّة والسببية ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ الطور: ٢١، قرأ أبو عمرو علي (أتْبَع) [٣٧]، وقوله (لَو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِم) الكهف (١٨) قرأ الأعمش ويحيى بن يعمر على (أَطْلع)[٣٨].

*** تحولات في رسم فاء المطاوعة:**

سبق في مبحث أبنية المطاوعة أنَّ أبنية انْفَعَّل، انْفاعل، افْتَعَل، تعد صوراً اشتقاقية فرعية عن تَفَعَّل، تَفاعَل، انْفَعَل، وأن افْتَعَل، خاصة، قد غدا من كثرة الاستعمال الصورة الأساسية والنظامية القياسية في الفصحى، وفي هذا البناء، في القرآن أو خارجه هناك مشكلة خطية في رسم تاء المطاوعة، تنعكس ضرورة، على نطقها، فهي على حين ترسم برمز التاء الأصلية الخالصة (صوتاً أسنانياً لثويًّا، مرقَّقًا، مهموسًا، انفجاريًا، مستقلاً، وهو الرمز الموضوع لها في الأبجدية العربية، مثله في عشرات الأمثلة (ابْتَدَعُوهَا،الحديد ٥٧ / ٢٧)، (اجْتَرَحُوا، الجاثية٢١) (ارْتَضَى، الأنبياء٨)، (اعْتَمَرَ،المائدة١٥٨)، (اقْتَرَبَ، الأعراف١٨٥)، (اهْتَزَّتْ، الحج٥)، (اهْتَدَى، النجم٣٠)، فَإنها،أي (التَّاء) تُرسم برمز الطاء، وبرمز الدال (اصْطَفَى،البقرة١٣٢)، (اطَّلَعَ،الصافات٥٥)، (ادَّكَر، يوسف٤٥)، أو تُصبح تاء مشددة (اتَّسَقَ،الانشقاق١٨) (اتّقَى، البقرة١٨٩)، (اتَّخَذَ، البقرة١١٦)، ويظهر ذلك إذا ما تجاورت (التاء) مع أصوات الإطباق، أو مع أصوات أسنانية لثوية، ومن ثم احتاج الصرفيون إلى شرح ذلك، فكانت قاعدة (الإبدال فالإدغام)[٣٩]، التي يُعاد شرحها أو توصيفها في اللغويات الحديثة، على أساس كونها ظاهرة صوتية، لا خطية إملائية، حيث التحول ههنا يجري لتفاعل الأَصوات المتجاورة، بعضها مع بعضها الآخر، طلباً للانسجام الصوتي، والتخفيف العضوي على اللسان ضمن قواعد المماثلة الكلية في (اطّلع، ادّكر، اتَّسق، اتَّقَى، اتَّخَذ) أو الجزئية في (اصْطَفَى)، مثلها وأُدغمتا معاً، ولم ترسم على ما يقتضيه علم الأصوات الوظيفي من رسم الصوت على الأصل دون الفرع، فالسياق التركيبي للبنية وراء هذا التحول، ثم صار عرفاً كتابيًا يصعب الخروج عليه،وشرح ذلك في (اصطفى) فوفقًا للقياس يقتضي أن تكون الصيغة في (اصطفى)

(اصتفى)، فأَثَّرَت الصاد المطبقة في التاء المرققة، فتحولت التاء إلى صوت مجانس للصاد، وهو الطاء، بوصفه النظير المطبق للتاء ضمن قواعد المماثلة الجزئية[٤٠]، ويلاحظ أن رسم المصحف الشريف بالخط العثماني، وبمراعاة الصور النطقية الفرعية هذه، هو الذي ما يزال مراعياً للسياق العارض وليس وَفْقَ صورة الأصل.

تحولات محدودة في فَعِل وفَعُل:

* بناء فَعِل: بناء للمجرد القائم على مجرد المخالفة في الحركة، بين فاء البنية وعينها، ويطَّرد في العربية الفصحى للتعبير عن الأعراض المتغيرة، وعليه فهو يكثر في الأفعال اللازمة، ويقل في المتعدية، والتحولات فيه غدت في اللهجات الحديثة تجري على المماثلة بين فاء البنية مع عينها، بين الصائتين، الفتحة والكسرة، إمَّا على (فِعِل) عند الحضر، وإمَّا على(فَعَل) عند البدو. أما في القراءات القرآنية فهي محدودة، ومنها:

١- فَعِل ـــــ فَعَل: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ القيامة: ٧، قرأ المدنيان وأبان (بَرَقَ) على فَعَل، ومنه: (بَقي وبَقَى، البقرة ٢٧٨)، (حَبط وحَبَط، البقرة ٢١٧)، (رَدِف ورَدَف، النمل٧٥)، (ضَحِك وضَحَك، هود٧١)، (طَفِق وطَفَق، الأعراف٢٢)، (وَحِل وَجَل، الأنفال٥)، (نَسِي ونَسَى،طه ٨٨)[٤١].

٢- فَعِل ـــــ فَعُل: قوله تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ هود: ٩٥، قرأ السلمي بالضم (بَعُد) على فَعُل[٤٢].

٣- فَعِل ـــــ فَعَّل: قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ طه: ٩٨، قرأ مجاهد وقتادة (وَسَّع) مشددة[٤٣]، ومنه: (كرِه وكَرّه،الحجرات١٢)، غَشِي وغَشَّى، طه٧٨).

٤- فَعِل ـــــ فاعَل: قوله تعالى:﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ البقرة: ١٤، قرأ ابن السميفع (لاقَوْا) بناء فاعَل[٤٤].

٥- فَعِل ـــــ أَفْعَل: قوله تعالى: ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ هود: ٧٠، قُرِئَ أَنْكَرَهُم على أفعل، وقيل ذلك لغة تميم وأسد[٤٥].

بناء فَعُل: بناء قليل العدد في العربية، وتكونيه الصرفي مثل بناء (فَعِل) تُخالف فيه حركةُ الفاء العينَ، ويَرِدُ للتعبير عن السجايا والطبائع وما في حكمها من الصفات الثابتة، فهو لا يكون إلا في فِعْلٍ لازم، وعليه فالتحولات فيه نادرة، ومنها في قراءات الفعل الماضي.

١- فَعُل ـــــ فَعَل: قوله تعالى: ﴿ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾آل عمران: ١٤٦، قرأ الكسائي بالفتح (ضَعَفوا) بناء فَعَل)[٤٦].

٢- فَعُل ـــــ فَعِل: قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ طه: ٩٦، [القصص: ٢٨]، قرأ الأعمش وأبو السمال وعيسى بالكسر (بَصِر) بناء فَعِل[٤٧]، وقوله تعالى: ﴿ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ﴾التوبة: ٤٢، قرأ عيسى بن عمر والأعرج بالكسر (بَعِد) بناء فَعِل[٤٨]، وقيل لغة لتميم.

التحولات الصوتية:

يحدث في اللغات بعامة، وقوع تحولات صوتية، بلا انعكاسات دلالية معجمية، وتكون عادة لا شعورية، كما في سائر العادات الاجتماعية، التي تقع دون استئذان من أحد، والعلة في هذا المقام نفسية بالدرجة الأولى، استحسانًا، أو ذواقة، أو أسلوبًا، أو ضرورة، وقد يصحب أو لا يصحب ذلك عِلَلٌ عضوية بدنية؛ للتخفيف أو الاقتصاد

في الجهد، والتحولات في هذا المقام متعددة. ويهم الدراسة منها ما يختص بأبنية الفعل الماضي المبني للمعلوم حصرًا، في ضوء الوارد من ذلك، في قراءات القرآن الكريم. وعلى التعيين ما يتعلق بالتحولات الداخلية في بنية الفعل نفسها، حيث يبقى الوزن الصرفي هو نفسه، والكم المقطعي هو نفسه، والمتغير إنما يكون في الوزن الصوتي، للمفردة عينها موضع المعالجة، ويلاحظ، غالبًا، أن التحولات الصوتية في هذا المقام، إنما تجري في ضوء قواعد صوتية كبرى مثل: التحول، والتبادل والتماثل والحذف والزيادة.

١ - التحول بين الحركات:

يقع بين الحركات في الصيغة الصرفية الواحدة، كما يقع بين الأصوات الصحاح حدوثُ تقاربٍ؛ لأجل التماثل والتجانس، أو تباعدٍ لأجل المخالفة والتمايز، أو تسكين. وفي كل ذلك تكون بقصد السلاسة في النطق والوضوح في التبليغ، وتظهر هذه المسألة في صيغ الفعل الماضي المجرد أكثر منها بكثير في صيغ الماضي المزيد. وهي تأخذ مظاهر نبرزها بالآتي: تسكين عين البنية، كسر فائها، ابدال صائت اللين بصائت مدٍّ، مدّ الصائت القصير، تقصير صائت اللين، تخفيف الصامت بصائت،تفريع الصائت.

أ - تسكين عين البنية (حذف الحركة):

التسكين والتحريك قاعدة تحويلية تتسع لها العربية، في معظم أبنيتها الصرفية (أسماء، صفات، مصادر، أفعال، وحتى الصيغ الجامدة من الضمائر والظروف).

ويظهر في الأبنية الثلاثة الموقوفة على الماضي المجرد، بالآتي:

١- بناء فَعُل: قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ النساء: ٦٩، قرأ أبو السمال (حَسْنَ) بسكون العين، لغة في تميم. وقُرئ (حُسْن) لغة في بعض بني قيس[٤٩].

وقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ التوبة: ٢٥، قرأ زيد بن علي (رَحْبَتْ) بسكون العين[٥٠]، وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الكهف: ٥، قرأ الأعمش (كَبْرت) بسكون العين[٥١].

٢ - بناء فَعِل: قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾النساء: ٨٣، قرأ أبو السمال (لَعَلْمَهُ) بسكون العين، لغة تميم[٥٢]، وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ البقرة: ٢٥٥، قرأ عكرمة وأبو السمال (وَسْع) بسكون العين[٥٣]، وقوله: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ هود: ٩٥، قرئ (بَعْدَتْ)[٥٤].

٣- بناء فَعَل: قوله تعالى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ النساء: ٦٥، قرأ أبو السمال (شَجْر) بسكون العين، لغة تميم[٥٥]، وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ البروج: ٨، قرأ أبو السمال وعكرمة (نَقْموا) بسكون العين[٥٦]، "كأنه فرَّ من توالي الحركات وليس بقوي؛ لخفة الفتحة بخلاف الضمة والكسرة"[٥٧]، في حين جوز ذلك السمين الحلبي لأن الفتحة وإن كانت أخف الحركات إلا أن السكون أخف منها[٥٨].

ومما ورد من ذلك قول الشاعر:

فإن أهْجُهُ يَضجَرْ كما ضَجَرَ بازلٌ مِن الأدْمِ دَبْرَتْ صَفحتاهُ وغاربُهْ

" أراد (ضَجِرَ) ودَبِرَتْ إلا أنه أسكن لثقل الكسرة على حد قولهم في كَتِف: كَتْف"[٥٩].

ومما ورد من تخفيف الفتحة قول الأخطل[٦٠]:

ومَا كُلُّ مُبْتَاعٍ وَلَوْ سَلْفَ صَفْقَهُ بِرَاجِعِ مَا قَدْ فَاتَهُ بِرَدَادِ

ورجع ابن يعيش ذلك لباب الضرورة. ولست معه في ذلك حيث إنه قد ورد في قراءة قرآنية، ووروده فيها يخرجه من حيز الضرورة.

ومهما يكن من شيء فإن الغرض من تسكين المفتوح هو التخفيف، وإن لم يكن في ثقل المضموم والمكسور، إلا أنه سكن فرارًا من توالي الحركات طلبًا للخفة، لا سيما أن السكون أخف منه، إلى جانب أن التسكين – هنا - يؤدي إلى السرعة في الأداء.

وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ المائدة: ٦٠، قرأ الحسن (عَبْد) بسكون العين[٦١]. وقد ذهب المبرد إلى التفريق بين ما كان مضموم العين ومكسورها وبين ما كان مفتوحًا حيث قال:" اعلم أنه يجوز إسكان الحرفين المضموم والمكسور في الموضعين اللذين حددتهما؛ استثقالا للكسرة والضمة... ولا يجوز في مثل دَهَبَ أن تُسكن، ولا في مثل جَمَل لا يسكن ذلك اسمًا ولا فعلًا؛ لخفة الفتحة، وثقل الكسرة والضمة"[٦٢].

ويطرد إسناد التسكين، لدى علماء الصرف القدماء، إلى لهجات شرقي الجزيرة من تميم وأسد وقيس وبكر بن وائل، على حين يُسند التحريك إلى لهجات غربي الجزيرة في الحجاز، والعلة عندهم هي التسهيل. وهي لاشك عِلَّةٌ نفسية معتبرة وصائبة، وفي عبارة سيبويه « كراهة أن يرتفع اللسان عن حركات متخالفة »[٦٣]. وكثيرًا ما ترد عندهم عبارة كراهة توالي الأمثال، فيجري التخلص من تلك الكراهة

بقواعد لغوية مثل (التسكين) ههنا، وفي غير هذا المقام يجري التسهيل بقواعد أخرى مثل القلب أو الفصل أو التكرار[٦٤].

ب - كسر فاء البنية (المماثلة):

التحول في هذا المقام يجري غالبًا بين الصائتين العلويين، نصف الضيقين؛ الكسرة الأمامية، والضمة الخلفية. والقياس العام ههنا، أن أصوات مقدم الفم تأخذ عادة صائت الضم، ويمكن في ضوء التماثل بين مخارج الأصوات، ومخارج الصوائت، أن يقع تحول من الضَّم إلى الكسر، كنوعٍ من المماثلة العكسية أو المخالفة. ويُسند الضم إلى الحجاز، والكسر إلى نجد.

ومعلوم أَنَّ الضَّمَّ أقوى الحركات وبحاجة إلى الأناة والتمهُّلِ، فشاع استعماله في الحضر، وتحول البدو عنه إلى الكسر، كمظهر سهولة، وخطف كلامٍ بلا تمهل[٦٥].

وتمثيل هذه المسألة في قراءات الفعل الماضي محدودة، وإنما تلاحظ في الفعل المضعف أو الأجوف، وعليه:

* قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ آل عمران: ١٥٧، قرأ نافع وحمزة والكسائي (مِتّم) بكسر الفاء[٦٦] بالمخالفة بين الكسرة وصوت الميم.

* قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾آل عمران: ٧٥، قرئ في الشواذ (دِمت) بكسر الفاء، لغة تميم[٦٧] كذلك التحول فيه مخالفة بين الصائت الكسرة، والصامت من أصوات مقدم الفم.

وكذلك ورد التحول بين الحركات في مقام الحركة المركزية المتسعة وهي الفتحة، منها إلى الكسر، وعليه:

* قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾طه: ٩٧، وقوله: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ الواقعة: ٦٥، قرأ الجحدري (ظِلت) بكسر الظاء[٦٨]، وقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾ الصافات: ١٠، قرأ ابن عباس (خِطِف) بكسر الفاء[٦٩]، وفي كلتا الحالين تظهر قاعدة المماثلة مع عين البنية، بكسر الفاء، تجانسًا مع كسر العين.

جـ - إبدال صائت اللين بصائت مَدٍّ:

يُعَدُّ سيبويه أول من استعمل مصطلح (اللين) لدى كلامه عن حروف العربية، فقال: (ومنها اللينة وهي الواو والياء. لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما)[٧٠]. وهي الآن تسمى بالأصوات (المزدوجة، وبالإنزلاقية، وبأنصاف حركات، أو أنصاف صوامت. ويخصها المصطلح بحالة نطقها المركب، عندما يَعْقُبُها أويسبقها صائت قصير، وإلا فهي صوائت (مَدِّيَّةٌ)، مثل (الألف)،التي لا تكون الا مديةً.

وحالات التحويل في صوتي اللين (الواو والياء) عريضة، ووسيعة (إبدالا، أو حذفًا،أو قلباً، أو إدغاماً) والدراسات الصرفية في هذا المقام وافية قديمًا وحديثًا[٧١]، وبخاصة في مبحثي الإعلال والإدغام. والدراسات الماثلة متعلقة بالتَّحَوُّل الصوتي، في صوت اللين، الوارد في قراءات الفعل الماضي، في صيغته المطلقة، خارج عملية الإسناد أو التركيب النحوي، وعليه وردت القراءة في قولة تعالى: ﴿ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ القصص: ٦٣، قرأ عاصم وبعض الشاميين (غَوِينا) بكسر الواو[٧٢] وهو ما

يعني انكماشًا في كَمِّ المزدوج الصوتي (وي) إلى حركة مَدِّيَّة مفردة بالياء المدية؛ طلباً للتجانس والتَّحَوُّل بين الواو والياء. وقولة تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ ﴾ق: ١٥، قرأ شيبة، وابن عبلة (أَفَعيِّنا) بياءٍ واحدة مشددة مكسورة [٧٣]، أدغم الياء في الياء؛ لتصير ياءً مدِّيَّة بدلا من ياءين ليِّنَتَيْن. ومثله في قراءة حفص ﴿ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ ﴾ الأنفال: ٤٢. وحُكِيِ أَنَّ ذلك لغة بكر بن وائل [٧٤].

وقوله: ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ المجادلة: ١٩، قرأ عمر بن الخطاب (استحاذ)، "أخرجه على الأصل ... واستحوذ: شاذٌّ في القياس فصيحٌ في الاستعمال"[٧٥]. وذهب الأزهري إلى أن الصورتين مستخدمتان، وذكر أن استحاذ لغة في: استحوذ[٧٦].

وجهة السماع يجعله يندرج في التحَوُّلِ الصوتي ههنا، من تحول الحركة المزدوجة (وَ) إلى مَدِّيَّة، كنوع من التقابل غير الوظيفي بين الحركات، من أجل التسهيل والخفة.

وقولة تعالى:﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ ﴾ محمد: ٢٢، قرأ نافع (عَسِيتُمْ) بكسر السين [٧٧] حيث تتحول الياء اللينة إلى مَدِّيَّةٍ.

وقولة تعالى: ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ البقرة: ٢٧٨، قرئ (بَقَى) بِأَلِفٍ مَدِّيَّةٍ، وتنسب هذه الخاصية إلى طيّئ لغة فاشية فيهم [٧٨]. وللظاهرة شُيُوعٌ في لهجات عربية كثيرة إلى اليوم، بل هي السمة الغالبة في الأفعال المجردة المعتلة الآخر. فثمة كراهة للنطق بالمزدوج الصوتي (وَ،يَ) حيث توجد مخالفة بين الواو وحركاتها، وكذا الياء فيصير النطق إلى المماثلة بين نصف الصائت الواو مع حركة الضم،أي إلى ضَمَّةٍ مَدِّيَّةٍ. مثله في النطق اليوم (لا قوا) وكذا مع الياء.

د - مد الصائت القصير (إشباع صوتي)

يُسْتَحَبُّ مَدُّ الصائت في تلاوة القرآن المجيد،وفي الحديث أن رجلاً قرأ (الفقراء) في قولة تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ التوبة: ٦٠، مرسلة على القصر دون المدِّ. فقال ابن مسعود: ما هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقال الرجل: كيف أَقْرَأَكَها؟ فقال: هكذا ومدها[٧٩]. وعضوياً فَمَدُّ الصائت خاصيةٌ بالتزمين في الكمّ الصوتي، والمُقَدَّرُ عند علماء التجويد من أربعٍ إلى ست حركات من حركة أصابع اليد.

والمد أحيانًا، يكون مظهراً صوتيًّا بلا محتوى دلالي، كما في مد أصوات اللين قبل الهمزة، في تلاوة القرآن المجيد، وأحياناً يكون عاملاً في المباني والمعاني معاً، فيحيل البنية الصرفية من مجرد إلى مزيد، كما في ما مضى من تحولات الأبنية سابقاً (فَعَل: فاعَلَ...) وكذلك يكون للتَّحَوُّلِ الصوتي على مستوى الصيغ المفردة نفسها، دون مبناها العام. وهذا النوع هو المقصود هنا، ويظهر في مجرد الصيغ ومزيدها، وعليه كانت القراءات الآتية.

- صيغ المجرد: قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ الإسراء: ١٦، قُرِئَ (آمَرْنا) [٨٠].

وقوله: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾الأعراف: ١٨٩، قُرِئَ (مَا رَتْ) [٨١].

وقوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ الأنعام: ١٠٥، قُرِئَ (دَارَسْتَ) [٨٢]. وقوله:﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ النمل: ٨٧. قُرِئَ (آتوه) [٨٣]. وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ الأنبياء: ٤٧، قُرِئَ (آتينا) [٨٤]. وقوله: ﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِۦ﴾الإسراء: ٨٣، قرأ ابن عامر (نَاءَ) [٨٥].

- صيغ المزيد: قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ آل عمران: ١٠٧، قُرِئَ (ابياضَت)[٨٦]. وقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ آل عمران: ١٠٦، قُرِئَتْ (اسْوادَّتْ) [٨٧]. وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ ﴾ يونس: ٢٤. قرأ النهدي (ازْيَانَّتْ) [٨٨]. وفي الجميع لا تظهر سوى وحدة صوتية واحدة قد طرأ عليها تَحَوُّلٌ في كَمِّهَا الصوتي، في المقطع المشبع، فيُسْمَعُ منبوراً، وواضحاً سَمْعِيًّا أكثر من سواه.

هـ - تقصير صائت اللين (نبر المقطع):

من خصائص اللغة العربية تَجَنُّبُ استعمال صوتِ مَدٍّ بعده صامتٌ صحيحٌ، في مقطع واحد، إلا عند الوقف، أو قبل المضعف (دَابَّة، ضَالّين) وذلك كراهة اجتماع الساكنين [٨٩]. ولا مجال للساكِنَيْنِ هنا، فصوتُ المَدِّ صائتٌ (حركة) لا صامت صحيح، وإنما هي كراهية نسقِ لِمقطعٍ صوتيٍّ يعيق سلاسة النطق في درج الكلام، ويُعْرَفُ حديثاً بالمقطع (المديد) من نموذج (ص ح ح ص). وتجري العربية في التّخَلُّصِ منه بتقصير المدِّ الزائد فيه، عن طريق النبر بالهمزة غالباً [٩٠]، وعليه وردت القراءات في الفعل الماضي.في الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ يونس: ١٦/ ١٠) قرأ ابن عباس والحسن (أَدْرَأْتُكُم) بتقصير المقطع [٩١].

وقوله: ﴿ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ ﴾ الحج: ٥، قرأ أبو جعفر (رَبَأَتْ) من غير مَدٍّ وبتقصير للمقطع[٩٢].

وقوله: ﴿ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي ﴾ الزمر: ٥٩. قرئ (جَئَتْكَ) من غير مَدٍّ [٩٣].

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ ﴾ يونس: ٢٤. قُرِئَ فيها بالنبر (ازْيَأَّتْ) وأصله تَزَايَنَتْ [٩٤].

وقديمًا ينسب النبر والتقصير للمقطع المديد إلى الأعراب في نجد؛ من تميم وعكل، وهم يقرأون (ضألين). وقيل لامرأة منهم: ما أَذْهَبَ أَسْنَائك؟ قالت: أكل الحأر، وشرب القَأرِ، في (الحَرِّ والقَرِّ)، وهو سلوك نفسي في التخلص من المقطع المديد[٩٥].

و - تخفيف الصامت (الهمزة) بصائت:

الهمزة صوت حنجري شديد، مرقق، مهموس، ثقيل في النطق. وعليه فقد شهد، وما يزال، تحولات متنوعة، تاريخية تعاقبية، وتزامنية وصفية، إنْ في الرسم، وإن في اللفظ، فالهمزةُ تستعمل محققة على أصل الوضع، وتستعمل مخففة. وفي اللهجات القديمة شاع التحقيق في لسان تميم، والتخفيف في لسان الحجاز [٩٦]. وأما حديثًا فهي تضمحل من اللهجات العربية، وتُخَفَّفُ بالحذف أو التّحَوُّل إلى واوٍ أو ياءٍ.

وفي مجال القراءات في الفعل الماضي فالتحولات فيها جاءت بالحذف، والإبدال والإشباع.

* من الحذف قوله تعالى: ﴿ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة: ٧، قرأ الزهري (بدا)، بالحذف والتعويض بألف المدّ، وفعلياً بالحذف وزيادة كَمٍّ الفتحة القصيرة قبلها فصارت ألفاً[٩٧]. وقوله تعالى ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴾ المعارج: ١، قرأ ابن عباس (سال) بالتحول نفسه[٩٨].

* ومن القلب المكاني: قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ ﴾ يوسف: ٨٠، قرأ ابن كثير (اسْتَأيَسُوا) من أَيِسَ مقلوب يَئِسَ. وقرئ بإبدال الهمز ياء (اسْتَايَسُوا) [٩٩].

ولا خفاء أنَّ القلب يحافظ على البنية من جهة الشكل، وأنه يُدْخِلُ عليها تجانُسًا في الأصوات للتسهيل في لفظها.

* ومن الإشباع: وقد ورد في الأفعال المجردة المهموزة، فوردت بالقصر وبالمدّ، فاحتملت أن تكون من تحولات الإبدال الصرفي من المجرد إلى المزيد، وأيضاً من التّحَوُّلِ الصوتي في الصيغة المجردة نفسها. وهو المُرَجَّحُ؛ نظراً لاختفاء الملمح الدلالي بين القراءتين، وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ الطور: ٢١، قرأ الأعرج (آلتناهم)[١٠٠]. وقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ الإسراء: ١٦، قُرِئَ (آمَرْنا)[١٠١]. وقوله: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا﴾ الأحزاب: ١٤، قرأ أبو جعفر (آتوها)[١٠٢]. ومثله (أتوه) قُرِئَتْ (آتوه) [النمل ٨٧] وصوتياً يتضح الإشباع ههنا، من وُجُودِ مقطع قصير مفتوح (أَ) غير منبور، قبل مقطع طويل منبور بعده، فيضعف ويحذف، أو يتقوى بالمدّ؛ ليتجانس مع ما بعده، فيكون الاشباع أو المَدَّ[١٠٣].

ز - تفريع ألف المدّ (الإمالة):

مثلما يقع بين الأصوات الصحاح من تقارب أو تباعد، كذاك الشأن مع الأصوات الصوائت (الحركات). وبخاصة المدِّيَّة؛ لأجل الخفة وطلب الانسجام، دون قصدٍ، وتَعْرِفُ المسألةَ العربيةُ وكلُّ اللغاتِ السامية[١٠٤]. وذلك فيما يعرف عند الصرفيين العرب بـ(الإمالة، والإشمام، والتفخيم، والنبر) وكلُّها مظاهر وظواهر فوق تركيبية وغير مقطعية، ومن المحسنات الصوتية التي تتسع لها بيئة لغوية، وتعدل عنها أخرى. وهي بخلاف المظاهر والظواهر التركيبة والمقطعية المتمثلة في الصوامت (الحروف الصحاح) والصوائت (الحركات). التي لها وظيفة دلالية تمييزيَّةٌ في المباني والمعاني على سواء[١٠٥]. ومقصد هذا البحث ما يَخُصُّ الإمالة في ألف المد. فهي

ظاهرة تحويلية متسعةٌ في قراءات الفعل الماضي. والأساس في تكوينها ما يقع من تقريب بين الألف المدِّيَّة في وضعها النظامي، كصائت (حركة) مَرْكَزِيَّةٍ وسيطة متسعة،مع انفراج في الشفتين واتساع مطلق في تجويف الحلق، واستواء للسان في المجرى الفموي، فيجري تضييق في الاتساع، واستعلاء بمقدمة اللسان في اتجاه الكسرة؛ لتتحول إلى صائت (حركة) أمامية نصف متسعة مع بقاء الانفراج في الشفتين، وهو الوضع الذي شاع وصفه بمصطلح (الإمالة)حتى إذا جرى التضييق واستعلاء اللسان في مؤخرة الفم، باتجاه الضمة تَحَوَّلَ المدّ، وبخاصة اليائي إلى ما يعرف بـ(الاشمام)[١٠٦]. كقراءة المبني للمجهول في قوله تعالى: (غِيضَ) [هود٤٤] (سِيءَ)، العنكبوت٣٣] (حِيلَ) [سبأ٥٤] (جِيءَ) [الزمر٦٩] (سِيقَ) [الزمر٧١، ٧٣]، فهذه قرئت بالإشمام من طريق الحسن وورش والأعمش والكسائي ويحيى بن يعمر[١٠٧].

والإمالة عند الصرفيين والقراء قديمًا خاصية لهجية بقبائل نجد عامة، في تميم وقيس وأسد وتغلب. فأمّا الحجازيون فلا يميلون إلا في مواضع قليلة [١٠٨]. ومن القراء الذين غلبت الإمالة لديهم حمزة والكسائي الكوفيّان، وكذا ورش. وجاءت في الأفعال الواوية واليائية هكذا: (زَكَا) [النور٢١] (دَحَاهَا) [النازعات٣٠] (طَحَاهَا)، الشمس٦] (تَلَاهَا) [الشمس٢] (خَافَ) [البقرة١٨٢].

وعمومًا فليست الإمالة في الواوي بكثرتها في اليائي، ومن اليائي: (رمي) [الأنفال١٧] (نَأَى) [الإسراء٨٣] (رأى) [الانعام٧٦] (سَجَى) [الضحى٢] (هَوَى) [النجم١] (أَنْجَانَا) [الأنعام٦٣] (فَنَادَاهُ) [آل عمران٢٩] (اسْتَهْوَاهُ) [الانعام٧١] (أَدْرَاكَ) [الحاقة٢]

التحول بين الصوامت (الإبدال الصوتي):

الإبدال الصوتي يمكن أن يكون تركيبيًّا، يفرضه السياق اللغوي في صيغة صرفية مفردة بنفسها، أو لعلاقتها بغيرها، ويمكن أن يفرضه العرف اللغوي الجماعي، أو العامل الفردي جراء لَثْغة أو حُبْسة، وطالما الإبدال لا يؤدي إلى اختلاف المعنى فهو غير وظيفي، وفيه ينبغي اعتبار أحد الصوتين أصلًا، والآخر فرعًا منه، أو تنوعًا له. وتحفل المكتبة العربية بمصنفات (القلب والإبدال) مع عدم الاختلاف في المعنى، وهو ما يصح وصفه أيضًا بـ (التَّحَوُّل الصوتي)، وضابط هذا النوع من التَّحَوُّل تقارب الصوتين أو تجانسهما في المخرج والصفات[١٠٩]، وعليه في قراءات الفعل الماضي: إبدال التقارب الصوتي، وإبدال الإعجام، وإبدال كلمي.

١- إبدال التقارب الصوتي:

* إبدال بين أصوات الصفير، من السين المرققة إلى الصاد المفخمة في قوله تعالى: (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ) [لقمان: ٢٠] قرأ يحيى (أَصْبَغَ) بالصاد[١١٠]، وقوله: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ الأحزاب: ١٩، قرأ ابن أبي عبلة (صَلَقُوكُمْ) بالصاد[١١١]، ومن الواضح أن ذلك انسجام مع وجود صوت مستعلٍ مفَخَّمٍ (الغين والقاف)، فهو تحول تركيبي، جراء تفاعل الأصوات المتجاورة بعضها ببعضٍ، في السياق الذي تجمعت فيه صيغيًّا، وذكر أن ذلك لغة بني كلب.

* إبدال بين أصوات الذلاقة: من الراء إلى لام، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ القيامة: ٧. قرأ أبو السمال (بَلَقَ) باللام[١١٢]، والواو إلى لام، في قوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ القصص: ١٥، قرأ ابن مسعود (لَكَزَهُ) [١١٣] باللام، وروي (نَكَزَهُ)، وفي ذلك مجانفةٌ لصفة التكرار في الراء، وصفة الإزدواج الصوتي في الواو.

* إبدال الحلقيات: من الغين إلى العين، في قوله: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ يوسف: ٣٠، قُرِئَ (شَعَفَها) بالعين[١١٤]، وذلك مجانفة لصفات القوة الزائدة في الغين على جواره، من كونها مفخمة حادة استمرارية، وليس لها قيمة دلالية.

٢- إبدال الإعجام:

من القراءات ما يصعب إدراجها ضمن عملية التحوُّل الصوتي، على الرغم من كون التبادل فيها غير وظيفي، حيث المعنى واحد، وذلك في إقامة صوت حاء مقام جيم (جَاسَ: حَاسَ)، وقاف، مقام فاء (أزلف: أزلق). وصاد مقام ضاد (قبض: قبص)، ونون مقام عين (أعطى: أنطى) فهذه الأزواج متباعدة في المخرج، ومختلفة في الصفات والتسليم بوجود القراءة فيها مع الإبدال، ويمكن تفسيره بأثر من الرسم القرآني، الذي لم يكن في أول أمره معجمًا بالنقط. وهذا يصح في توجيه القراءات:

* قوله تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ طه: ٩٦، قرأ أُبَيٌّ وابن مسعود، وابن الزبير ونصر بن عاصم والحسن وقتادة وابن سيرين (قَبَصْتُ) بالصاد[١١٥].

* قوله تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ الإسراء: ٥، قُرئ (فَحَاسُوا)[١١٦].

* قوله تعالى: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ الشعراء: ٦٤، قرأ أُبَيٌّ وابن عباس وعبد الله بن الحارث (أَزْلَقْنَا) بالقاف[١١٧].

٣- إبدال كلمي (قراءة بالمعنى):

القراءة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الكوثر: ١، فهذه في الحق، من تداخل اللغات بين الصيغ نفسها، لا بين الأصوات بتلك الصيغ، وهي قراءة مَرْوِيَّة

ً عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعند بعض المفسرين أنها لغةٌ للعرب العاربة من أُولي قريش، ولدى آخرين من لغة اليمن[١١٨]. والراجح أنها من ملتقى اللغات السامية الشمالية مع العربية. فالصيغة (أنطى) فاشية لليوم لدى البدو ببادية الشام، وشمال الجزيرة العربية، وهي الصيغة الأساسية في العبرية والسريانية، مع تحريف صوتي بسيط بين تاء سامية وطاء عربية، والمقابل العربي الأساسي هو (أعطى) من الفعل المزيد، لا المجرد (عطى)، وما تزال تتعايش الصيغتان الأساسية (أعطى) والمقترضة (أنطى)[١١٩].

ويندرج ضمن الإبدال الكلمي تحولات القراءة الخارجة عن حَدِّ الصيغة المعجمي إلى قراءة مرادفة بالمعنى، من صيغة معجمية مختلفة، ويُعرف مثل هذا التحول في فقه القراءات بـ(قراءة بالمعنى) وعليه:

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ النساء: ٦، قرأ ابن مسعود (أَحَسْتُمْ)، وحُكِيَ أَنَّها لغة سُلَيم [١٢٠].

قوله تعالى: ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ القصص: ١٥، قرأ ابن مسعود (لَكَزَهُ)، ورُوِيَ (نَكَزَهُ).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ ﴾ الأعراف: ٥٢، قُرِئَ (فَضَّلْناهُ)[١٢١].

قوله تعالى: ﴿ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾يونس: ١٦، قرأ الحسن (ولا أَدْرَأْتُكم به) [١٢٢].

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ الأعراف: ١٥٤، قُرِئَ (سَكَنَ)[١٢٣].

قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ الشرح: ٢، قَرَأَ أنسٌ (حَطَطْنا) [١٢٤].

قوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴾ القيامة: ٢٨، قرأ ابن عباس (أَيْقَنَ) [١٢٥].

قوله تعالى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ ﴾ الشمس: ١٤، قرأ ابن الزبير (دَهْدَمَ)[١٢٦].

قوله تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ ﴾ المائدة: ٨٥ ، قرأ الحسن (آتاهُم) [١٢٧].

قوله تعالى: ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ يس: ٥٢، قرأ أُبيٌّ (هَبَّنا) [١٢٨].

قوله تعالى: ﴿ فَأَعْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يس: ٩، قرأ ابن عباس والحسن وأبو حيوة (أَعْشَيْناهُم) بالعين[١٢٩].

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ سبأ: ٢٣، قرأ عيسى بن عمر وابن مسعود (افْرَنْقَعُوا) [١٣٠].

ولعلَّه يلاحظ في مقام التحولات المتعلقة بـ(الإبدال الكلمي) أَنَّ فِئَةً منه قد وردت على ما يحتمله رسم المصحف العثماني، ولكن فئة أخرى وردت مخالفة لرسم المصحف مخالفة تامَّةً، كما في: (وَضَعَ: حَطَّ) (ظَنَّ: أَيْقَنَ) (بَعَثَ: هَبَّ)(فزَّع: افْرَنْقَع). وهذه من باب القراءة التفسيرية، وليست قراءة يصدق عليها مفهوم القراءة؛ حتى صفة الشاذة. وجعلها من القراءات من باب التوسُّع.

نتائج البحث:

١- أظهر البحث أن تعدد صور الألفاظ في أبنية الفعل الماضي قد وردت بـه قـراءات القراء السبعة الكبار، وقراءات أخرى لا تقوى قوة أولئك في النقل، وقـد كانـت هي الأكثر تحمُّلا لتعدد الصور.

٢- الاتجاه في تحولات أبنية الفعل يكون امتدادًا من المجرد إلى المزيد،وارتدادًا من المزيد إلى المجرد، ونمط الارتداد هو الأكثر استعمالا مما يقوِّي أنه تحوُّلٌ صرفيٌّ لامعجمي، ودواعيه يمكن تلمسها بالاستحسان والتخفيف.

٣- التحولات الصوت صرفية ورد النقل بها في قراءات الجمهور والقراءات الفرعية (الشاذة)، ومعظم الشواذ استندت إلى رواة من القراء المتأخرين، وبخاصـة القـرن الثاني الهجري، علمًا بأن سند القراءات في أبنيـة الفعـل ههنـا قـد توقـف بنهايـة القرن الخامس.

٤- التحولات التي وقعت في الوزن الصوتي لا الصرفي، أي في صيغ الأفعال نفسها، لافي مبانيها التي تنتظمها، كانت هي الأكثر وقوعًا، والأشد جذبًا وتنوعًـا؛ قـراءةً بها، أو استماعًا لها. وعليه فالتنَوُّعُ فيها غير وظيفي معجمي، وإنما تحوُّلٌ صـوتي، قادت إليه عوامل لغوية أو اجتماعية مذكورة في طوايا الدراسة.

٥- ثمة قواعد كانت وراء التحولات الصوت صرفية، أوضحُها: الحذفُ، والإبـدالُ، والمماثلة، والزيادة.

٦- كُلُّ التحولات الصوتية، وردت علـى سَـنَنٍ تسـمح بهـا قواعـد العربيـة لغويًّـا، وصرفيًّا، ومعجميًّا، باستثناء التحولات المنتمية إلى صنف القراءات بـالمعنى - ولم

تكن قليلة - وعليه فهي تصح نماذج للحفظ والقياس عليها عند الضرورة، وبخاصة في الاستعمال الجمالي أو الفني من الاستعمالات اللغوية غير الرسمية.

٧- أخيرًا يشار إلى أن صوت اللهجات العربية القديمة، لا ينفع في تفسير أو تعليل التحولات في أبينة الفعل، كما هي عليه في واقع الدراسة. فمن جهةٍ لا تتعلق معظم التحولات بواقع مستعمل أو معهود في اللهجات القديمة، ومن جهةٍ أخرى فحتَّى لو ذُكِرَت اللهجات وكان نادرًا؛ فإنما تُذْكَرُ توصيفًا وذِكْرًا لبيئة الاستعمال، وليس تعليلا لوقوع التحولات هنا.

مراجع البحث ومصادره:

- آل غنيم، صالحة: اللهجات في كتاب سيبويه، معهد البحوث، أم القرى، ١٩٨٥م.
- إبراهيم، عبد الفتاح: مدخل في الصوتيات، تونس، دار الجنوب، ٢٠٠١ م.
- ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، ت، الضباع، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن جني: المحتسب، ت، النجدي وآخرين، المجلس الأعلى، القاهرة، ١٩٨٦هـ.
- ====: الخصائص، ت، محمد علي النجار، بيروت.
- ابن خالويه: مختصر في شواذ القراءات، المتنبي، القاهرة، ١٩٣٤ م.
- ابن عصفور: الممتع في التصريف، ت، الأفغاني، بيروت، ١٩٩٧ م.
- ابن مجاهد، أبو بكر: السبعة في القراءات، ت، شوقي ضيف، ط٢،دار المعارف، القاهرة.
- ابن يعيش: شرح المفصل، دار صادر، بيروت.
- =====: شرح الملوكي في التصريف، ت، قباوة، المكتبة العربية، حلب / ط١،١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
- أبو حيان: البحر المحيط، ت، عادل وآخرين، بيروت ١٤١٣هـ.
- أبو زرعة: حجة القراءات، ت، الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط٣ ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م، بيروت، ١٩٩٧م.
- الأزهري: تهذيب اللغة، ت، هارون وآخرين، المؤسسة المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون،ت أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- الأقطش، عبدالحميد: التفخيم في العربية، المجلة الأردنية في اللغة العربية، م ٦، ٢٠٤، ٢٠١٠م.
- أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية، الأنجلو المصرية، ١٩٨١م.
- ===== :في اللهجات العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.
- برجستراسر: التطور النحوي، ت، رمضان، القاهرة، ١٩٩٨٢م.
- بروكلمان: فقه اللغات السامية، ت، رمضان عبد التواب، الرياض، ١٩٧٧م.
- بني حمد، أحمد: المماثلة بين ابن جني والدراسات الصوتية، إربد، ٢٠٠٣م.
- الجندي، أحمد علم: اللهجات العربية في التراث، الدار العربية، ١٩٨٣م.
- الداني: المقنع، ت، قمحاوي، الكليات الأزهرية، القاهرة.
- الدمياطي أحمد: إتحاف فضلاء البشر، ت، شعبان، عالم الكتب بيروت، ١٩٨٧م.
- الرضي: شرح الشافية، ت، محمد نور وآخرين، دار الكتب، بيروت، ١٩٧٥م.
- الزجاج: معاني القرآن، شلبي، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- الزمخشري: الكشاف، دار الفكر، بيروت.
- الزين، عبد الفتاح: قضايا لغوية في ضوء الألسنة، الشركة العالمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- سيبويه: الكتاب، ت، هارون، القاهرة، ١٩٦٦م.
- السيوطي: الأشباه والنظائرت، رؤوف سعد، دار الكتاب، بيروت.

- شاهين، عبد الصبور: المنهج الصوتي للبنية العربية: رؤية في علم الصرف، مؤسسة الرسالة،١٤٠٠ه -١٩٨٠م، بيروت.
- ==========: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، القاهرة، ١٩٦٧م.
- الشايب، فوزي: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة عالم الكتب، الأردن، ٢٠٠٤م.
- شلبي، عبد الفتاح: الإمالة في القراءات، القاهرة، ١٩٧١م.
- الصالح، صبحي: دراسات في فقه اللغة، دار العلم، بيروت، ١٩٦٠م.
- عبد التواب، رمضان: لحن العامة والتطور اللغوي، الزهراء، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- : اللغة العبرية، رأفت سعيد، القاهرة،١٩٧٧م.
- عبده، داود: أبحاث في اللغة العربية، لبنان، ١٩٧٣م.
- عضيمة، عبد الخالق: دراسات لأسلوب القران الكريم، دار الحديث، القاهرة، ١٩٧٢م.
- عمر، أحمد مختار: دراسات الصوت اللغوي، القاهرة، ١٩٧٦م.
- عون، حسن: دراسات في اللغة والنحو، القاهرة، معهد الدراسات، ١٩٦٩م.
- الفراء: معاني القران، ت، نجاتي والنجار، بيروت.
- فليش، هنري: العربية الفصحى،ت، عبد الصبور.
- فندريس: اللغة، ت، الدواخلي والقصاص، الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م.
- القرالة، زيد: الحركات في العربية، إربد، ٢٠٠٤م.
- القيسي، مكي: الكشف عن وجوه القراءات السبع، ت، محي الدين رمضان، الرسالة، بيروت، ١٩٧٨م.
- كنعان، عبدالله: أثر الحركة المزدوجة، إربد، الأردن،٢٠٠٣م.

- كانتينو، جان: دروس في علم أصوات العربية، ت، القرمادي، تونس، ١٩٦٦م.
- المبرد: المقتضب، ت، عضيمة، المجلس الأعلى، القاهرة، ١٣٩٩هـ.
- المطلبي، مالك: الزمن واللغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
- النحاس، مصطفى: مدخل الى دراسة الصرف العربي، الكويت.
- النحاس: إعراب القران الكريم، ت، زهير غازي، العاني، بغداد، ١٣٩٧م.
- نور الدين عصام: المصطلح الصرفي، بيروت، الشركة العالمية، ١٩٨٨م.
- هريدي، عبد المجيد: تتفعل وتتفاعل في القران الكريم، الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠م.